الغايات — ٣

فالغايات المحمودة ماخالطها دين يكف النفس عن الهتان ، ويغسل الحس من الأدران. يوجهها فيحسن وجهتها ، ويقودها فيوفى قيادتها . ويكون نبراسها الذى لاتتمثر وراءه مهما طال طريقها واشتد ريقها ، وتنازعتها العقبات ، وقامت حولها الشبهات . وهى غايات دينية عمادها الدين وكل مايصدر عنها لايتعدى دائرته ، ولا يجاوز طريقته . فامتزاج الدين بالروح قوة تنفذ بنورها إلى كل ماحوته الطبيعة ، لاترتد دون وقوف على حقيقة ، ولا تعجز عن غامض الأسرار . ومن غير الله بصير بعباده ، يرى علمهم ، ويقدر الأدواء لهم . وإن رسالة السماء لهدى ونور يحكم بها النبيون فيضربون للناس الأمثال ويرسمون لهم طريق الرشد للمعاش والمعاد حتى لاينسى أحد نصيبه من الدنيا والآخرة. ولا بدع أن أقول لك أن الانقلابات العالمية من يوم خلق الله الكرة لم تكن إلا وليدة هذه الغايات . وأى انقلاب أخطر من أن يقوم دين آخر فيصبغ النفوس بصبغة لاعهد لها بها ، ويوردها سبيلا لم تتعلق من قبل بآدابها .ويقتحم الألباب بجديد مألفته ، ليقضى به على الالباب من قديم عرفته .

على أنه لولا انقطاع تيار الغايات الدينية لحكمة نظامية وتوالى الفترات بين دين ودين لما تحدث التاريخ عن إفراد كل ماقاله عن الواحد منهم إنه فتح حصنا أو هزم جيشا أو سارت أمته به وعلى سياسته حينا من الدهر ماأقام الدين صرحا ، ولاشيد للأخلاق بناء .

والغايات الدينية من عقل المرء مهبط لايتطرق إليه معلوم ولا يداخله موهوم إلا أخذ قوة العقيدة فلا تثيره الشؤون، ولا تمحوه السنون . ومنبت هذه الغايات فى النفس الاقتناع بماهية الدين ، وانتصار صوت الله دائما فى كل الأمور . وما التصق الدين بشىء إلا زانه ، ولا نزع من شىء إلا شانه ،ولا نشر ظله على ملك إلا كساه بثوب الطاووس ، وصيره نزهة للنفوس ، وأسبغ عليه الهيبة ، ووقاه من الخيبة ويقول قائل « الدين بالعقل يقوى والملك بالدين يبقى ».

واعلم أن الغايات الدينية لايعرف صاحبها الخوف ، ولا تخاف السيف ، ولا يجبن أمام غول الغوائل، ولا يقعده بأس الحوائل فهى فيه على قدر عقله وآماله . وعندى لك مثل أعلى لهذه الغايات واستقرارها، وانتصارها ذلك هو محمد بن عبد الله الذى نشأ بين قوم لا تلين لهم قناة ، ولا تقرع لهم صفاة ، جاهليتهم ضلال وعربيتهم انحلال، يعبدون الأصنام، ويستقسمون بالأزلام يأكلون الميتة ، ويدسون أفلاذ أكبادهم فى التراب ،لاتدين العرب إلا لجبهم ، ولا

يمرح الطغيان إلا فى نفوسهم . فخلق منهم خلقا آخر يجيب داعيه ، ويقدر مساعيه يفتديه بالأب والأم والولد ، والمال والدم والسيد والقيد . وما كان المال للأنصار كيلا ، ولاهال الأوسعة على المهاجرين هيلا . ولكن استقر فى نفسه ووقر فى قلبه مكارم خلق بعثتها فطرته الدينية قد لقومه حبلها ، وضرب لاجتماعهم طبلها ، فسارعوا إليها وتكالبوا عليها قتل عروشا كانت تكتنفه ، وجاء لهم كل جبار وفى الرغام أنفه . ثم انظر كيف فنى على آثاره من ودهم حب هذه الغايات ومزجها بدمائهم فحفظوا بضاعته وحموا للاسلام بيضته . فها هو أبو بكر يقول للعرب أطيعونى ما أطعت الله فيكم فأن عصيته فلا طاعة لى عليكم» وها هو عمر جنبت زوجه من وظيفته خمسة دراهم لتشترى بها حلوى فلم يرض إلا أن ترد إلى بيت مال المسلمين وقد در شاعر النيل إذ يقول فى ذلك :

وأقبلت بعد خمس وهى حاملة ... درهمات لتقضى من تشهيها
فقال نبهت منى غافلا قدمى ... هذى الدراهم إذ لا حق لى فيها
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به ... أولى فقومى لبيت المال رديها
ويلى على عمر يرضى بموقبة ... على الكفاف وينهى مستزيديها

وها هو على بن أبى طالب يرد «عقيلا» أخاه صفر اليدين وكان قد سأله صاعا برا من بيت مال المسلمين لأبنائه وهم غبر الألوان شعث النواصى من فقرهم ثم قرب منه حديدة محماة فى النار فضج ضجيج ذى دنف من ألمها : فقال على ثكلتك النوا كل ياعقيل أتخاف حديدة أحماها إنسانها لعبه وتقدمنى لنار سخرها الجبار لغضبه . أتئن من الأذى ولا أئن من لظى ؟ وإنه لقائل «وإن دنياكم عندى لأهون من جلب شعيرة فى فم جرادة تقضمها» وها هم غيرهم ومن نهجوا طريقهم هل رأيت أو سمعت أو قرأت مالا يشرح الصدور ويرضى الزعايا إلى أقصى درجات الرضا ، ويرفع راية المجد إلى آخر حدود الارتفاع ؟ فيالك من غايات لا تترك معوجا إلا أقامته ، ولا موضوما إلا أنصفته ، ولا خيرا إلا أبرزته ، وبها تسامى الأمم السماء ويرتفع مكانها فوق الجوزاء وموعدنا المقال التالى

عبد الفتاح السيد

(شمال الدلتا)